

المشرف العام	شفيق جرادي
رئيس التحرير	محمود يونس
إدارة التحرير	باسمة دولاني
المدير المسؤول	بدرى معاوية
الهيئة العلمية	أحمد ماجد حبيب فياض حسين إبراهيم سمير خير الدين
الهيئة الاستشارية	غلام رضا أعواني نادر البزري سعاد الحكيم
	علي يوسف علي الموسوي محمّد زراقط مصطفى الحاج علي
	جاء حاتم محمّد قتي السبحاني محمّد مصباحي

IDEA
CREATION
Advertising Agency

إخراج فني

رسالة معهد المعارف الحكمية: معهد المعارف الحكمية (للدراستات الدينية والفلسفية) مؤسسة بحثية تعليمية، تنشط في العقل الفكري من أجل توفير حضور فاعل في الوسط العلمي والثقافي، وتجسير التواصل بين الاتجاهات الدينية والفكرية، من خلال الدراسات المعمّقة والتعليم التخصصي، والأنشطة والنشر.

مواضيع النشر في مجلة المحجة: تنشر المحجة الأوراق العلمية والمقالات الفكرية التي تتحقّق فيها الأصالة بحيث لا تكون قد نشرت سابقاً، أو مقدّمة للنشر في مكان آخر؛ تتولّى الهيئة العلمية في المجلة تحكيم المواد المقدّمة وترجيحها، على أن تبقى أسماء المحكّمين والكتاب غير معلنة، بحق لإدارة التحرير إجراء التعديلات المناسبة على البحث بشكل منفرد أو بالاتّفاق مع الباحث؛ تُرفق جميع المساهمات بملخص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة، ولا يتمّ قبول الأبحاث التي لا تستوفي الشروط المبينة أعلاه. وتحفظ دار المعارف الحكمية بكامل حقوق الطبع والنشر للمواد التي يتمّ نشرها في المجلة.

ما ينشر في المجلة يعتبر عن رأي صاحبه ولا يعتبر بالضرورة عن رأي المجلة.

أرسل المراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

معهد المعارف الحكمية (للدراستات الدينية والفلسفية)

البيان - الحدث - سانت تيريز - ستر يحقوفي - بلوك C - الطابق الثالث

أو على رقم الحساب: بنك عودة 59129946100206401

almahajja@shurouk.org

00961-5-462191 / 00961-1-54462191

اللاهوت الطبيعي ومعرفة الله الوجودية

إشكالية الوحي في لاهوت رودولف بولتمان

أنطوان فليفل^(١)

في حين تسترسل تيارات لاهوتية وفلسفية مسيحية، وغير مسيحية، بالكلام عن اللاهوت الطبيعي، أي معرفة الله عبر الخليفة، أو العقل، يعارض رودولف بولتمان هذا التوجه أشد معارضة، وقد استنبط لاهوته، الأمين لفكر المصلح مارتين لوتر (١٤٨٣-١٥٤٦)، متأثراً بفلسفة مارتين هايدغر (١٨٨٩-١٩٧٦) الوجودية، وملازماً اللاهوت الجدلي^(٢). وهو يعتقد أنه من المستحيل للإنسان معرفة الله بقدرته الخاصة، أو من خلال التأمل بالطبيعة أو التاريخ، وهما يحملان سمة رفض الله. فالله لا يتجلى عبر الفكر، أو مجرى التاريخ، أو الخلق، بل يفصح عن ذاته بذاته في وجود الإنسان، في تاريخيته Geschichtlichkeit الخاصة.

المفردات المفتاحية: رودولف بولتمان؛ اللاهوت الجدلي؛ اللاهوت الطبيعي؛ الوحي؛ الإيمان؛ الثقة؛ الرجاء.

المعطى اللاهوتي التاريخي المتعلق بمسألة الوحي

يقوم رودولف بولتمان^(٣)، في محاضرة له بعنوان «مفهوم الوحي في العهد الجديد»^(٤) بتحرّ

(١) أستاذ الفلسفة واللاهوت في جامعة ليل الكاثوليكية، فرنسا.

(٢) تيار لاهوتي تبلور على إثر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) في عالم الإصلاح، ويعدّ، بشكل أساسي، ردّة فعل على اللاهوت اللبرالي أراادت التأكيد على تعاليم الإصلاح البروتستانتي الأساسية. رفض هذا التيار كل شكل من أشكال معرفة الله من خلال الطبيعة، وأصرّ على استحالة معرفته إلا من خلال وحيه عن ذاته انطلاقاً من ذاته. من أهم ممثلي هذا التيار، كارل بارت (١٨٨٦-١٩٦٨) وإميل بروتر (١٨٨٩-١٩٦٦).

(٣) (١٨٨٤-١٩٧٦) لاهوتي وعالم كتاب مقدّس، لوتري ألماني. درّس العهد الجديد لثلاثة عقود في جامعة ماربورغ. تعتبر كتاباته، ومنها تاريخ التقليد الإزائي *Die Geschichte der synoptischen Tradition*، من أشهر المراجع في الدراسات الكتابية النقدية. وله نظريات بالغة الأهمية في علم اللاهوت الحديث، وأهمّها تلك المتعلقة بنزع الأسطورة Entmythologisierung عن الكتاب المقدّس بهدف إدراج بشاره يسوع الناصري في سياقها التاريخي لتحديد جوهر رسالته.

(٤) R. Bultmann, "Der Begriff der Offenbarung im Neuen Testament," in *Glauben und Verstehen* (Tübingen):

سريع حول المعطى التاريخي المتعلق بمفهوم الوحي من أجل تحديد المفاهيم التي ينبغي نقدها. وهو لا يوجه رفضاً مطلقاً لأي من المفاهيم المعروضة، بل يبين أنها جزء من مفهوم الوحي، مع أنها عاجزة عن التعبير عنه بشكل ملائم تماماً.

لا يدرج بولتمان الألفية الأولى ضمن بحثه، وهو يبدو مع اللاهوت الكاثوليكي القروسطي الذي يتبلور حول إشكالية العلاقة بين العقل والوحي، وهو لا يعتبرهما ماهيتين ذاتي طبيعتين مختلفتين، بل مستويين، أو نسقين، للإبلاغ عن محتوى معرفي. وينظر هذا اللاهوت إلى محتوى الوحي المعرفي كمحتوى يتجاوز المعرفة العقلية. ولكن، في كلتا الحالتين، للعقل والوحي محتوى معرفي يمكن القبض عليه وإبلاغه. ونتيجة لذلك، يمكن اعتبار (١) الإنسان كائنًا محدودًا بما يمكنه معرفته، و(٢) الوحي إبلاغاً لعقيدة ومحتوى معرفي، و(٣) قدرات الإنسان المعرفية أسمى إمكانية لكيانه. لا شك في أن الوحي يظهر من ضمن هذا المنطق كحقيقة تتخطى حدود الإنسان، بحيث إن أصلها إلهي، ولكن بولتمان يعارض فكرة اعتبار حدود الإنسان في إمكانياته المعرفية. فلا يمكن لله أن يكون مادة معرفية - كما تحاول إثباته «الأدلة على وجود الله».

وقد حصل مع الإصلاح البروتستانتي تحول جوهري حول المسألة. فأسمى إمكانية للإنسان لم تعد المعرفة، بل الثقة بكلمة مغفرة الخطايا *fiducia*. ولكنه لم يتم تناول مفهوم الوحي انطلاقاً من هذا التحول، فبقي تحت تأثير اللاهوت الكاثوليكي القروسطي.

أما مذهب العقلانية، فقد أحدث تطوراً مهماً من خلال رفضه اعتبار إمكانيات الإنسان المعرفية حادة له. فمع هذا المذهب الذي يقرّ بقدرة الإنسان على معرفة كل شيء، لم يعد للإنسان حدود، ولم يعد لفكرة الوحي معنى، ذلك أن الوحي أصبح «طبيعياً». ولكن هذا الأمر متناقض، بحسب بولتمان، مع عمق مفهوم الوحي، وهو حتماً «فائق الطبيعة».

وعلى عكس مذهب العقلانية، لا ينظر المذهب المثالي الرومانسي إلى الوحي كمعطى في العالم، كما لا يعتبر إدراكه ممكناً من خلال معرفة العالم العقلانية. فيضحى الوحي تجلياً «للروح». ولذلك، لم يعد الوحي يعتبر مع هذا المذهب «فعلاً تجريبياً»، ولكن بات كـ«الروح الذي يتجلى عبر الأفعال». ينظر بولتمان بإيجابية إلى هذا التيار من منطلق أنه يحافظ على سمو الوحي، ولكنه ينتقد فهمه لإدراك الوحي بحيث يقضي بأن يعود الإنسان إلى ذاته لاكتشاف الله الكامن فيه (*Deus in nobis*). وهذا أمر يرفضه اللاهوتي الألماني الذي يعتبر أن الإنسان، بهذا الفعل، بحالة هرب من وجوده الزمني.

وفي مواجهة مذهب العقلانية، يتكلم بولتمان عن مفهوم آخر للوحي يعتبر أن حياة الإنسان لغز، ما يجعل الوحي مسألة لاعقلانية، أو خشوعية. يقر اللاهوتي بأهمية هذا التوجه من حيث أنه لا يحد الإنسان بالمعرفة العقلية، ومن جهة أن اللاعقلانية والخشوعية تساعدان الإنسان على طرح سؤال الوحي، وتجعلانه في حالة الاحتياج والانفتاح. ولكن لا يمكن للوحي وللحديث عن الله أن يتطابقا مع اللاعقلانية والخشوعية. فعندما يحاول الإنسان مساءلة الإلهيات بحسب هذا المنهج، فهو، في الواقع، لا يسائل إلا ذاته.

يعد اللاهوت البرالي من آخر التيارات التي ذكرها بولتمان، وهو يراه مركبا من المذهب العقلاني ومن المذهب المثالي الرومانسي. ولكن، على عكس هذا الأخير، يعتبر اللاهوت البرالي أنه بالإمكان ملاحظة القدرة الخالقة، والتأكد منها، كمعطى من العالم ومن التاريخ. وعليه، يظهر الإنسان كخالق. أما الأعمال الأخلاقية، والظواهر الثقافية، ومسيرة التاريخ من الظلمات إلى النور، فتظهر كوحي. وما يجب الإشارة إليه في هذا النوع من التفكير هو وجود إدراك دائم للوحي كواقع يحطم حدود الإنسان. فخبرة اكتشاف الحسن، والحق، والجمال، تقتلع الإنسان من حدوده، وتضعه في خضم حياة أسمى، ألا وهي الحياة الإلهية.

لكل هذه التيارات جامع مشترك، بحسب بولتمان، وهو اعتبارها الإنسان كائنا محدودا يمكنه، من خلال الوحي، البلوغ إلى كيانه الحقيقي، لأن الوحي يحطم حدوده. وما يميز هذه النظرات المختلفة بعضها عن بعض هو فهمها للإنسان، وحدوده، ولأصالته. وهنا يسأل بولتمان: أين تكمن حدود الإنسان؟ هل بما يمكنه معرفته، أو بفرديته، أو بالحياة وخبراتها؟ لربما شكلت تلك المعطيات كلها حدودا للإنسان، ولعله ثم محتوى معرفي للوحي، أو حتى أعمال أخلاقية، أو ثقافية، أو خبرات يجب النظر إليها. لكن يعتبر بولتمان أن ليس لكل ذلك من علاقة مع الوحي، لأن تلك الإجابات كلها لا تأخذ تاريخية الكائن البشري بالاعتبار عندما تتكلم عن الوحي.

إجابة بولتمان: الإنسان ككائن تاريخي في الزمن

إن تصور الإنسان ككائن بشري يعني القول بأن الأخير ليس جزءا من تاريخ العالم فحسب (كما يقول اللاهوت البرالي)، بل إن لديه أيضا تاريخه الخاص الذي يتحقق في وجوده، أي في لقاءاته التي تسائله دائما حول الطريقة التي يأتي بها من ماضيه إلى حاضره، والتي توجب قراره. ومساءلة القرار محورية لمفهوم الإنسان ككائن تاريخي، وقد استعاره بولتمان من

زميله القديم، الفيلسوف مارتن هايدغر، الذي يعتبر كيان الإنسان وجودًا (*ex-sistere*)، أو "قدرة-وجود"، أو "قدرة-قرار". فبإمكانه أن يقرر بين وجود غير أصيل، أي وجود ينطلق من أشياء العالم، ووجود أصيل، أي وجود نابع من فهم لذاته انطلاقًا من ذاته. لن يتبنّى بولتمان كامل هذه النظرية الفلسفية، ولكنه سيحتفظ بمفهوم الكائن البشري كـ "قدرة-قرار"، مع إعطائه إجابة مختلفة لمسألة أصالة الإنسان التي لا يمكنها أن تنبع، بالنسبة للإيمان، إلا من الله.

إذا، يحقق الإنسان ذاتيته الأصيلة في اللحظة التي تستدعي قراره، وهو في الواقع غير موجود خارج هذه اللحظة، وهي اقتلاع من الماضي، وانفتاح على المستقبل، ولقاء مع العالم، أو مع الله. ولذلك، يعتبر بولتمان أن فهم الوحي بحسب المفاهيم التي عرضناها يعني إنكار تاريخية الإنسان، لأنّ الوحي، بحسبها، لا يلاقي الإنسان في وجوده حيث هو دائمًا مدفوع إلى القرار، ما يجعله كائنًا تاريخيًا. فلا يمكن للقاء مع الله أن يكون حدثًا ماضيًا، لأنّ على هذا اللقاء أن يتحقق في كل لحظة يلاقي بها الله الإنسان من المستقبل الإلهي. فإن كان الوحي محتوي معرفيًا بالإمكان فقهه نهائيًا، فلا مكان لتاريخية الكائن البشري، لأنّ الوحي - انطلاقًا من هذا المنطق - جزء من الماضي. ولكن القول بتاريخية الكائن البشري يعني أنه دائمًا مدفوع إلى أخذ قرار في لحظة لقائه مع الله الذي يأتيه دائمًا من المستقبل، وعلى هذا اللقاء، الذي لا يمكن القبض عليه نهائيًا، أن يتجدد دائمًا في لحظة القرار.

تحدث هذه النظرة إلى الإنسان تحولًا جذريًا على صعيد أسمى تحقيق له ككائن. فذلك التحقيق لن يعود في المعرفة، أو في ما هو لاعتقالي، أو في التاريخ، بل هو حالة من الإمكانات الموجودة في كل لحظة قرار. كما تحدث هذه النظرة، كذلك، تحولًا في مفهوم الوحي. فعلاقة الإنسان بالوحي لن تعود متعلقة بالمعرفة أو غيرها من التصنيفات التي ذكرناها، بل علاقة قائمة على وجود يتطلب القرار دائمًا. إذ لم تعد تتوقف معرفة الله على قبول عقيدة، أو على التأمل بالذات، أو على محاولة لفهم مسيرة التاريخ، بل على قرار قبول كلمة تُسائل الإنسان: "الإيمان المسيحي هو عمل إرادة وتصميم، قرار بالتحديد، أي إجابة على كلمة الله، وقبول دعوة الله - بغض النظر عن الطريقة التي يلمس بها الإنسان من نداء الإيمان".

والقول بأن الإنسان كائن تاريخي يعني كذلك أنه لا يوجد إلا من خلال قراراته التي يأخذها في زمنيته، أي انطلاقًا من ماضيه، ونحو مستقبله. والزمنية فئة من تاريخية الإنسان

تظهر معارضة بولتمان للمفاهيم التقليدية للوحي. ففي مذهب المثالية الرومانسية، يفرّ الإنسان من زمنيته لملاقاة الألوهة (*Deus in nobis*)، وفي مفهوم الوحي كعقيدة، ليس للزمنية أي أهمية بوجه الحقائق الأزلية التي تحلّ في عقل الإنسان. أضف إلى ذلك أنّ زمنية الإنسان ليست مجرى التاريخ العام ولا تطوّره، بل زمنية تاريخه الخاص الذي هو جزء من تاريخ العالم. وعدم إيلاء أهمية لزمنية الإنسان يوازي، بالنسبة لبولتمان، عدم اعتبار لتاريخيته، ما يعني انتقاص المعطى الأساس من كيان الإنسان، والتكلّم عن جانب ثانويّ منه فحسب، جانب يخفض من طبيعته كقدرة كيان.

يفرض القول بالزمنية الماضي والحاضر، أو اللحظة والمستقبل. تضع تلك الفئات الإنسان أمام مسؤولية الماضي الذي منه يأتي، والمستقبل الذي يلقاه ويدفعه إلى القرار. فالإنسان، ككائن بشريّ، مسؤول عن صنع تاريخه، وكيانه الأصيل موجود دائماً بوجهه في المستقبل الذي هو مدعوّ إلى ملاقاته عبر قراره. والإنسان في حالة صيرورة دائمة، بما أنّ أصالته تأتيه دائماً من مستقبله، وهو يلاقيها. أمّا على صعيد الوحي، فهذه الزمنية تعني أنّ الإنسان هو دائماً مسؤول عن ماضيه الخاطي، وهو دائماً الخاطي المسامح. والله يأتيه دائماً من المستقبل في حدث يسوع المسيح الأخرويّ، ما يدفع الإنسان إلى أخذ قرار في وجه هذا الحدث، ليس مرّة نهائية، ولكن على الدوام، لأنّه بحالة صيرورة دائمة.

باختصار، يتميّز بولتمان عن المذاهب التي يعرضها، ويتصوّر الإنسان انطلاقاً من فلسفة هايدغر الوجودية، ما يولّد فهمًا جديدًا لمفهوم الوحي على ضوء تاريخية الإنسان في زمنيته. فلا يكمن حدوث معرفة الله ولقاؤه، بالنسبة إلى بولتمان، إلّا في وجودية الإنسان، وإن كان من إمكانية للإنسان لمعرفة الله، فهذه المعرفة وجودية تستدعي قرار الإنسان ومسؤوليته. وعليه، لا يصير الإيمان المسيحيّ إراثًا تاريخيًا، أو محتوًى معرفيًا، أو حقيقة غير تاريخية، أو ميثولوجية، بل التزامًا دائمًا للإنسان الذي لا يني يقرّر وجوده انطلاقاً من دعوة الله إليه، وهي تأتيه من مستقبله. فلا يمكن للمسيحيّ أن يكون مسيحياً بشكل نهائيّ، لأنّ عليه صنع المسيحية الحقّ دائماً، في كلّ لحظة يقرّر فيها الردّ الإيجابي على دعوة الله له في وجوده.

مشكلة اللاهوت الطبيعيّ

تعارض نظرة بولتمان الوجودية في الوحي مع كلّ لاهوت طبيعيّ يقرّ بإمكانية معرفة الله من خلال الطبيعة. فيعتبر اللاهوتيّ أن لا سبيل لمعرفة الله إلّا من خلال وحيه الذي يصيب

الإنسان في تاريخيته وزمنيته، وكل ما زاد عن ذلك ضلال.

يحدّد بولتمان مفهوم اللاهوت الطبيعي الكاثوليكي على أنه معرفة الله المتاحة للإنسان من دون الوحي، ما يعني أنه بإمكان الإنسان معرفة الله من خلال الخليقة، وهذا ما تمّ إقراره في المجمع الفاتيكاني الأول. ولكن هذا اللاهوت الطبيعي مستحيل بالنسبة إلى اللاهوت البروتستانتي^(٥)، لأن الله لا يمكنه أن يكون مادة معرفية، وإلا لن يكون إلا ظاهرة من ظواهر هذا العالم. فالإيمان يعلم أن الله هو فوق العالم، وأنه لا يُدرَك إلا بوحيه من خلال حدث يسوع المسيح. فالله، الآخر كلياً والمتعالي، لا يُعرف إلا عندما يعلن عن ذاته، كما تقول الآية: «إن الله ما رآه أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه»^(٦).

ولكن، وإن كان رفض بولتمان لكل شكل من أشكال اللاهوت الطبيعي واضحاً، فإن ذلك لا يزال يمثل مشكلة، لأنه بإمكان غير المؤمن فهم الدعوة المسيحية، ولأن أتباع الأديان غير المسيحية يتكلمون عن الله، ولأن الفلسفة تدعي فهم الإيمان بالله كإمكانية إنسانية. لا يترك اللاهوتي الألماني هذه الإشكاليات من دون إجابات.

ليس مصدر قابلية غير المؤمن على فهم الدعوة المسيحية قدرة طبيعية يملكها الإنسان للانفتاح على الألوهة، بل فهم مسبق *Vorverständnis* يفسّر إمكانية موجوده عند كل إنسان لفهم أي دعوة توجه إليه. فحتى لو كانت هذه الدعوة جديدة بالنسبة إليه، وحتى لو كان يجهلها سابقاً، فبإمكانه فهمها، لأن كل فهم يمكن للإنسان الحصول عليه يرتكز على فهم آخر كان يملكه في السابق، حتى لو كان معاكساً للفهم الجديد. وعليه، عندما تبلغ دعوة الإيمان المسيحي الإنسان، فإنه يقبلها انطلاقاً من مفهوم معين للوجود ولذاته، ويستبدل هذا المفهوم القديم بالمفهوم الجديد. وعلى الرغم من أن الدعوة المسيحية هي نقيض الواقع السابق، يبقى هذا الواقع السابق فهمًا مسبقاً يمكن الإنسان من الحصول على فهم جديد^(٧). باختصار، لا يوجد لدى الإنسان أي قدرة طبيعية لمعرفة الله، بل إمكانية فهم للدعوة المسيحية مصدرها خبرته الوجودية.

أما الأديان والبشر الذين يدعون الكلام عن الله خارجاً عن الدعوة المسيحية، فهم لا

(٥) يلاقي بولتمان بذلك تفكرات اللاهوتي كارل بارت Karl Barth.

(٦) يوحنا ١: ١٨.

(٧) لمزيد من التوضيح، يرتكز بولتمان على بولس عندما يتكلم عن الإنسان القديم والإنسان الجديد. فحتى لو حصل الإنسان القديم على مغفرة الله التي تجعل منه إنساناً جديداً، فلاستمرارية بين الحالتين واقع، والإنسان يبقى هو هو، مع الفارق أنه [الإنسان] مُبرّر.

يتكلمون عن الإله الحقيقي بالنسبة إلى بولتمان. فكلّ ديانة خارجة عن الإيمان بدعوة الله في المسيح هي ديانة غائصة في اللاإيمان. فالإيمان لا يرفض، بالمبدأ، فكرة كشف الله عن ذاته في كلّ الأديان والبشر الأتقياء. ولكن عمّن يتكلمون عندما يتحدثون عن الله؟ يعتمد بولتمان على الرسالة الثانية إلى أهل قورنثس ٤: ٤^(٨) ليقول إنهم يتكلمون عن العالم، وعن ذواتهم، ظانين الكلام عن الله. فالإنسان يتكلم عن الله مسقطاً عليه ذات رغبته وهمومه، وقلقه من إشكالية الشرّ في العالم، لأنّه يبحث عن ضامن أخلاقي لحياته، وإلى غير ذلك. ويمكنه التكلم عن الله كالسبب الأول، ولكن ما يدفعه إلى ذلك مجرد فضول فكري. كما يمكنه التحدّث عن الله من زاوية التقوى، أو اللاعقلانية، ولكنّه يتكلم بذلك عن عدم قدرته على حلّ لغز وجوده. ولذلك، لا يمكن اعتبار كلّ هذه الخطابات حول الله كلاهوت طبيعي، لأنها لا تتكلم عن الإله الحقيقي، حتّى لو تشابهت مع بعض إجابات الإيمان، بل تتكلم عن الإنسان وإسقاط ذاته في وجوده. فلا توجد أيّ علاقة بين أيّ معرفة افتراضية لله والإيمان المسيحي، وإلا اعتبر هذا الأخير جزءاً من التاريخ الإنساني، ومن تاريخ الأديان. ولكن لا يعني القول بانتفاء العلاقة بين معطى الأديان حول معرفة الله ومعطى الإيمان استحالة معرفة الله خارجاً عن الإيمان، لأنّ الإنسان يمتلك سؤال الله، ويمكنه السؤال عنه بحكم وجوده الذي يدفعه إلى معرفته. فعندما يختبر الإنسان محدوديته في الوجود، يطرح على ذاته سؤال ما يتخطى هذه الحدود، وهنا سؤال الله. ولكن السؤال ليس جواباً، ويمكن فقط للإيمان بإله يسوع المسيح - وهو ليس معطى من هذا العالم أو إسقاط ذات إنساني - أن يكون الإجابة الصحيحة لسؤال الإنسان الوجودي حول الله.

أفلا تشكّل الفلسفة بذلك، وهي تدّعي القدرة على فهم الإيمان كإمكانية إنسانية، حجةً للإقرار بمبدأ اللاهوت الطبيعي؟ يعتبر بولتمان أنّ الفلسفة واللاهوت كليهما يتناولان مسألة الوجود بشكل علمي. وعليه، فالإنسان، أكان مؤمناً أو غير مؤمن، هو دائماً موضوع تحرّ وتأويل من قبل الفلسفة. ولكنّ الفارق بين الاثنين يكمن في أنّ الفلسفة، عند حديثها عن التبرير^(٩)، تتكلم عن الحالة الإنسانية ومحدوديتها. في حين يتكلم اللاهوت عن مغفرة الخطايا. وبذلك، تتكلم الفلسفة عن مفهوم التبرير، في حين يتحدث اللاهوت عن حدث التبرير، وهو المسيح. ويتابع بولتمان معتبراً أنّ هذا الفارق غير كاف لفهم دقائق الأمور،

(٨) «غير المؤمنين الذين أعمى بصائرهم إله هذه الدنيا، لئلاّ يبصروا نور بشارة مجد المسيح، وهو صورة الله».

(٩) التبرير، في عرف بولتمان، هو نتيجة لقرار الإنسان بالردّ إيجاباً على دعوة الله إليه في الوحي.

لاسيما وأن اللاهوت بحاجة إلى الفلسفة في تفكيره وخطابه؛ ولذلك يضيف قائلاً إن الفلسفة بإمكانها ملاحظة الإيمان وعدمه بما هي ظواهر تخص الإنسان وإمكانياته، ولكن إجابة اللاهوت للفلسفة هي أن عدم الإيمان ليس بإمكانية، بل حالة أساسية عامة للموجود الإنساني. فحتى لو لاحظت الفلسفة قراراً وجودياً في اتجاه الإيمان، فهي عاجزة عن فهم الحدث الإيمان الذي لا يدرك إلا بواسطة الإيمان، لأنه ليس بظاهرة من الموجود، بل حدث أخروي. وباختصار، يتوقف فهم الفلسفة للإيمان على إدراك إمكانية قرار لدى الإنسان، ويعتد هذا الإدراك وجودياً، وليس في أي حال كيان، أي إن الفلسفة تلاحظ تغيراً وجودياً نظراً إلى قرار الإنسان، ولكنها عاجزة عن فقه تحول كيان الإنسان من كائن خاطئ إلى كائن مبرر. إذاً، لا يمكن اعتبار الفلسفة حجة لوجود لاهوت طبيعي.

على الرغم من كل هذا الدحض لمقالة اللاهوت الطبيعي، يدعن بولتمان لوجود شكل من اللاهوت الطبيعي، وهو تأويل الوجود السابق للإيمان انطلاقاً من الإيمان. وهذا نوع من اللاهوت الطبيعي لأنه يدرك وجود الإنسان الطبيعي كوجود خاطئ يمكنه التبرير في حال آمن. ولكن هذا النوع من اللاهوت الطبيعي ممكن انطلاقاً من عالم الإيمان فحسب.

معرفة الله الوجودية

على الرغم من عدم إمكانية معرفة الله خارجاً عن وحيه، يتكلم الكثير من البشر غير المؤمنين بيسوع المسيح عن الله، ما يدفع ببولتمان إلى الحديث عن نوع من معرفة الله تتخطى المسيحية. ولكنه يحذر سريعاً قارئه قائلاً إن تلك المعرفة هي تساؤل فحسب، لا يمكن اعتبارها إجابة بتاتاً، وهنا محور تفكير بولتمان حول المسألة. أجل، ثم معرفة لله ممكنة خارجاً عن يسوع المسيح، ولكن هذه المعرفة مصدرها وجود الإنسان، وهي ليست الإجابة على وحي الله في المسيح، فيجب التمييز بين معرفة وأخرى.

وبغية تفسير هذا النوع من المعرفة التي يستقيها الإنسان من وجوده، يطرح بولتمان سؤال معرفة ما يعنيه الإنسان عندما يتكلم عن الله، ويحاول الإجابة منطلقاً من مارتين لوتر الذي يقول إن الله هو القدرة التي نضع فيها قلوبنا، والتي نعود إليها في احتياجاتنا. ويمكن لهذه القدرة أن تكون المال، أو المعرفة، أو الصداقة، أو الشرف، وإلى غير ذلك. وفي العالم، هذه القدرة ليست بقدرة خاصة، بل هي القدرة الكلية، الجبروت، التي تحتضن القدرات الخاصة كلها. وعليه، فإن فكرة الجبروت هي جزء من فكرة الله. ومن هذه الخلاصة

الأولى، ينتقل اللاهوتي الألماني إلى خلاصة ثانية مفادها أن هذا الإله الكلي القدرة هو أيضًا قدرة متطلّبة، لا تتطلّب المجد فحسب، بل الحق والأخلاق كذلك، ما يعني أن الله هو القدّوس، والحاكم الذي يستوجب العدل. ولذلك، فإن فكرة القداسة هي جزء من فكرة الله. ويستخلص بولتمان من الفكرة الثانية فكرةً ثالثة مفادها أنه بما أن الله قدّوس، أي منزّه عن العالم، فهو أزلي. ولهذا، فإن فكرة الأزليّة جزء من فكرة الله. وباختصار، عندما يتكلّم الإنسان عن الله، يتكلّم عنه ككائن كلي القدرة، قدّوس وأزلي. ولكن كيف يبلغ الإنسان إلى تلك الخلاصات خارجًا عن الوحي؟ من خلال وجوده!

يختبر الإنسان ضعفه في وجوده، وهو يتوق إلى أن يكون كلي القدرة، ولكن عجزه عن ذلك يجعله يتكلّم عن إله كلي القدرة، إله يصنعه على صورة يريدها له. وهو يقوم بذلك لأنّه يخضع دائمًا إلى قدرات مختلفة، كقدرات التاريخ، والطبيعة، والقدر، والموت، ما يجعل حياته قلقًا ومظلمةً إن لم يتكلّم عن قدرة فائقة تتخطّى كلّ القدرات الأخرى. والإنسان بحاجة إلى هذه القدرة، إن كانت العرق، أو العقل، أو أي قدرة تتخطّى قدرات العالم، لأنّه يأمل، في مواجهة واقع العالم، الحصول على حياة أفضل.

ويختبر الإنسان واجب الكيان في وجوده، لأنّه يعلم أنّه لم يبلغ ما يجب عليه كونه، ولذلك يتكلّم عن الله كقدّوس، ومتطلّب، وقاض. والإنسان الصادق يتوق، بحسب بولتمان، إلى أن يصحّح أخطاء ماضيه، وهو يعتبر أن تحقيق ذاته لم يتمّ في حاضره، بل هو شيء عليه أن يصبحه، لأنّه سائر على سبيل أصالته التي هي دائمًا أمامه. فالإنسان يتكلّم عن الله القدّوس المتطلّب، لأنّه يختبر عدم كماله وتحقيق واجبه، ولأنّه بحالة بحث عن الذات. ولكن معرفة الله هذه ليست سوى إسقاط لذات طموحاته الأخلاقية التي يجسدها في مثال يبلغه إلى الصراط القويم، مثال يسمّيه الله القدّوس.

ويختبر الإنسان، أخيرًا، هشاشة وجوده، ومحدوديّة الزمنية، ولذلك يتكلّم عن الله كأزلي. ولكن الله يظهر هنا أيضًا كإسقاط لذاته. فوضع الإنسان اللاكامل يدفعه إلى التكلّم عن الكمال حيث الحياة بلا موت، والنور بلا ظلمة، وهو شيء لا يملكه في هذه الحياة حيث الولادة والموت. ولذلك يتساءل الإنسان عن هذه القوّة التي تحطّم الموت وتعطي الحياة، ويحاول البلوغ إليها، هاربًا من الدنيا، بواسطة التأمل الفكري الذي يخوّله المشاركة في مملكة الأفكار الأزليّة، أو بواسطة حياة التقشّف، أو الاختبار الصوفي.

وخلاصة القول إنّ الإنسان، عندما يتكلّم عن جبروت الله، وقدسيتّه، وأزليّته، بمعزل عن

الوحي، لا يتكلم عن الله، بل عن ذاته. فله في وجوده معرفة معينة عن الله، لا يعتبرها الإيمان المسيحي معرفة حقيقية، بل كالسؤال عن الله. ولكن الوحي هو جزء من حياة الإنسان، بما أنه يختبره في جوده، وبما أن وجوده يدفعه إلى السؤال عن الله. فالتكلم عن معرفة الله الوجودية تلازم تاريخية الكائن البشري، وتحدث تغييراً في التفكير حول مسألة الوحي، لأن تدخل الله يعطي الإنسان إجابة عن سؤاله، ويدفعه، ككائن تاريخي، إلى القرار. ويجب الإنسان إلى دعوة الله إليه في وجوده، لا بواسطة عقله، أو أحاسيسه، أو تصوفه، بل من خلال إرادته.

لا يرفض الإيمان المسيحي، إذا، سؤال الله الوجودي، ولكنه يعلن قدرته على دخول أعماقه وإيضاحه، مع تأكيده على أن الإجابات غير المسيحية كلها أوهام. فوجهة نظر الإيمان تعلن أن فكرة جبروت الله في المسيحية مختلفة عما تقوله معرفة الله الوجودية، لأن قدرة الله الكلية التي يلقاها المؤمن ليست إسقاطاً لذاته ينطلق من ضعفه ككائن، ولا هي جبروت يمكنه إيجاده في العالم، بل في الإيمان فحسب. ولا ريب أن وجه الله القدوس الذي يكشفه الوحي مغاير عما يختبره الإنسان من حاجة أخلاقية في وجوده، لأن الإيمان المسيحي لا يعتبر صوت الضمير كصوت الله، وذلك لا يعني أبداً احتقاراً للوعي الأخلاقي الطبيعي. ولكن، عندما يعترف المؤمن بأن الله قدوس، فهو يقر بأن الإنسان خاطئ، وهذا أمر لا يبلغه إلا الوحي. ولا شك في أن أزلية الله التي يكشفها الوحي مختلفة أيضاً عما تقوله معرفة الله الوجودية، لأن الإيمان المسيحي يعلن أن الإنسان الذي يلاحظ حدوده وموته لا يتكلم عن أزلية الله الحقيقية، بل عن توقه الخاص إلى الأزلية، وهو هروب من الزمنية والتاريخية. فآزلية الله تأتي إلى الإنسان في الوحي، وهي ليست هروباً من العالم لأنها تلاقيه في وجوده.

وعليه، يظهر كل من جبروت الله، وقدسيته، وأزليته، بحسب الإيمان، كواقع نهيوّي، ولا كواقع طبيعي، ما يمنع الإنسان البلوغ إليهم من دون الوحي. إذ تظهر قدرة الله الكلية كقدرة لا مثيل لها في العالم على مغفرة الخطايا. وتُظهر قدسية الله أن حدود الإنسان خطيئته، وهي رفض الله، ولذلك تدين هذه القدسية الإنسان، وتحرره في الآن نفسه عبر المغفرة. وأما أزلية الله، فهي تجعل من حياة المؤمن حياة نهيوّيّة، ما يعطي الوجود المسيحي طابع الأزلية، فلا يستخرج المؤمن وجوده من العالم المخلوق، بل من أزلية الله التي يلقاها في الوحي من خلال يسوع المسيح.

وهنا يظهر التباين بين فكر بولتمان وفكر هايدغر. ففي حين يعتبر الفيلسوف أن أصالة الإنسان تنبع من أخذه قراراته انطلاقاً من ذاته، لا انطلاقاً من العالم، يجيب بولتمان قائلاً بأنه حتى القرارات التي يأخذها الإنسان انطلاقاً من ذاته لا تجعله أصيلاً، لأن ذات الإنسان جزء من العالم. فلا يبلغ الإنسان أصالته بالنسبة إلى الإيمان إلا عندما يأخذ قراره انطلاقاً من الله. وعليه، يكتشف المؤمن من خلال الوحي قدرة الله الكلية، وقديسيته، وأزليته الأصيلة، بحيث يضحى كل وجوده وجوداً نهيوياً. فهو يبقى في العالم مع أنه ليس جزءاً منه.

يقر بولتمان أنه عاجز عن إثبات هذه الوحي لأحد، وأن على الإنسان الطبيعي، إن أراد فهمه، أن يكف عن اعتبار معرفة الله الوجودية كجواب. أما السؤال المحوري لللاهوتي الألماني فهو: إن كان وحي الله فعلاً حدثاً، فهل يقبل الإنسان الطبيعي أن يتخلى عن معرفته الزائفة عن الله، ليسمح بكشف وجوده الخاطي، أو هل يفضل التعامي عبر اعتبار الأوهام التي يبينها انطلاقاً من ذاته كوحي الله له؟

إذا، لا معرفة أصيلة لله خارجاً عن وحي الله الذي يلاقي الإنسان في وجوده، ما يجعل من هذا الوحي حدثاً.

الوحي كحدث إيماني

الوحي إذاً ليس بمضمون معرفي، أو بإحساس، أو بتقوى، ومعرفة الله غير ممكنة عبر التاريخ والطبيعة. فوسيلة معرفة الله الوحيدة هي من خلال وحيه بيسوع المسيح، في وجودية الكائن الإنساني وزمنيته، ما يجعل من الوحي حدثاً إيمانياً نهيوياً، يبطل الموت، ويعطي الحياة، كما يعلم كتاب العهد الجديد.

يبحث بولتمان عن تعريف صحيح للوحي في العهد الجديد علّه يصحح معرفة الإنسان المسبقة، وهي «معرفة لا تعرف (nichtwissendes Wissen)»، بما أن فكرتها عن الوحي غير صائبة. ويعلم كتاب العهد الجديد أنه لا يمكن للإنسان أن يكون مصدر حدث الوحي، لأن الوحي عمل من الله يسائل الإنسان، عمل قوامه يسوع المسيح. ولا يمكن رؤية هذا الحدث إلا من خلال الإيمان، وهو يكون مع الوحي حلقة مقفلة، بحيث لا يمكن التكلم عن أحدهما من دون التكلم عن الآخر. والإيمان موقف إنساني من ناحية إجابة الإنسان على دعوة الله فحسب، ولكن الإنسان عاجز عن الإيمان إن لم يدعه الله، ويعطه الإيمان، ويخلقه في قلبه، لا كشيء طبيعي، بل كأعجوبة. فالإنسان الطبيعي لا يمكن أن يكون مؤمناً، لأن

الإيمان بالنسبة إليه إمكانية يمكنه الحصول عليها إن قرّر الاستجابة إلى دعوة الله له على نحو إيجابي، وهي على الرغم من بلوغها إليه عبر الوعد، أي عبر كلام بشري، ليست جزءاً من هذا العالم، بل نهيوية. والإيمان ليس بموقف عقلي، بل هو حدث يحياه الإنسان في وجوده، حيث يصغي إلى الوحي، وإلى الكلمة التي تلقىه أمام إمكانية المستقبل. ولكن حياة الإيمان هذه لا تخلو من التوتر، لأنّ المؤمن يعيش في العالم على الرغم من أنّه ليس من العالم.

الإيمان والوحي مرتبطان في فكر بولتمان إلى حدّ يخال قارئه أنّه يتكلّم عن الشيء نفسه. وفي الواقع، هما يعتمدان على بعضهما إلى حدّ لا يمكن للواحد أن يوجد من دون الآخر. فإمكانية الإيمان موجودة في الوحي، وإمكانية قبول الوحي موجودة في الإيمان. وبالتالي، فإنّ الوحي لم يكن ممكناً للبشر إلا عندما أرسل الله ابنه، وهو إمكانية الإيمان الحق الوحيدة.

والحديث عن الإيمان غير ممكن من دون الكلام عن الرجاء، لأنّ الحياة المعطاة للمؤمن عبر الوحي لا توجد في حاضره إلا كمستقبل. فهو يملكها في الإيمان لا غير، وليس في الملء، وبذلك هي موضوع رجاء، لأنّ المؤمن لا يحصل على ملئها إلا عند قيامة الأموات (ولذلك هي نهيوية). وهي حاضرة بفعل الوحي، والإيمان، وقيامة المسيح، ولكنها غائبة بفعل وجود الإنسان في العالم وانصياعه إلى قوانينه. ولذلك، بما أنّ الإيمان المسيحي ليس بواقع واضح في العالم، يعتبر بولتمان أنّه على المؤمن أن يقبض عليه بشكل متواصل عبر قراراته، لأنّه ككائن موجود على الدوام في واقع ديناميكيّ بوجه أوضاع جديدة، وبوجه عبثيّة التاريخ عليه دائماً اتخاذ قرار الإيمان. فالمسيحي مدعو لأن يكون مسيحياً في كلّ حالة وجود جديدة، لأنّ الله يسأله دائماً عبر مستقبله.

خلاصة

ختام القول في هذا المقال إنّ بولتمان يعتبر أنّ الله يعلن عن ذاته للإنسان بواسطة يسوع المسيح، وأنّه لا يرى إلا من خلال هذا الوحي الذي يبلغ الإنسان كحدث، كدعوة من خلال البشارة. وبما أنّ الإنسان كائن تاريخي، فهو مدعو إلى القرار بوجه تلك الكلمة الموجهة إليه. فإمّا أن يقرّر اتباعها، وهو يعطي بذلك ردّاً إيجابياً لدعوة الله له، ما يبرّره ويجعله أصيلاً، وإمّا يقرّر رفضها، فيبقى في الخطيئة، أي الوجود انطلاقاً من العالم، وهو وجود غير أصيل. وفحوى القول، إنّ محتوى الوحي بالنسبة إلى بولتمان هو الله الذي يظهر

كغافر للخطايا، وكمبرّر للإنسان الذي يكتشف نفسه كخليقة مسامحة، حياتها الأصلية مصدرها الله الخالق.

وعلى الرغم من بعض جوانب فكر بولتمان التي تطرح مشاكل عدّة في عالمنا الحاضر، ولاسيما على صعيد حوار الأديان، إذ يمكن اعتبار لاهوته لاهوتاً إقصائياً، تبقى نظريته إلى تاريخيّة الكائن البشريّ وزمنيته شديدة الأهميّة عند تناول مسألة الوحي والإيمان. فلا شكّ في أنّ هذه النظرة المستقاة من فلسفة هايدغر تسائل الفكر العربيّ الدينيّ بشكل خطير، برافديه المسيحيّ والإسلاميّ. فأيّ مكان لتلك التاريخيّة في أنظومات الكنائس العربيّة اللاهوتيّة، خصوصاً في ظلّ تأثير الانتماء الطائفيّ وطغيانه، وحتىّ تشويهه الانتماء الكنسيّ والإيمانيّ؟ وأيّ مكان لتاريخيّة الإنسان البشريّ في الأنظومات الدينيّة الإسلاميّة الحاليّة على تنوّعها، وقد شوّوها الانتماء الطائفيّ؛ أيّ مكان في ظلّ صعوبة تأويل النصّ القرآنيّ، في غالب الأحيان، خارجاً عن الأسس التقليديّة، وعلى ضوء معطيات تاريخيّة وإنسانيّة جديدة لا تمتّ بصلة إلى ماض بعيد، ظروفه مختلفة أشدّ اختلاف؟